السيد جعفر مرتضى العاملي

تفسير سورة المسد



دروس في تفسير القرآن الكريم

المركز الإسلامي للدراسات

تفسير سورة
المسد

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

٢٠١٦م - ١٤٣٧هـ

المركز الإسلامي للدراسات
لبنان - بيروت - الضاحية الجنوبية - أوّل حي ماضي
بناية حجازي - ط1 - تلفاكس: 00961.1.274519
البريد الالكتروني: alhadi@alhadi.org

المنشورات: بيروت - بئر العبد - سنتر الانماء 3 - 00961 70995421

تفسير سورة المسد

السيد جعفر مرتضى العاملي

المركز الإسلامي للدراسات

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين، محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة على أعدائهم أجمعين، من الأولين والآخرين، إلى قيام يوم الدين.

وبعد.. فهذه كلمات حول سورة «المسد» ألقيت على مسامع بعض الإخوة المؤمنين في الضاحية الجنوبية لمدينة بيروت، عاصمة لبنان..

وبعد استخراجها من أشرطة التسجيل، وإعادة النظر فيها، ترجح لدينا نشرها، لاحتمال أن تكون بعض اللمحات والإشارات الواردة فيها مفيدة لمن يطلع عليها.

ونحن نأمل من القارئ الكريم إن وجد فيها خللاً، أو خطأً أن لا يبخل علينا بالدلالة عليه، وسنكون له من الشاكرين..

والحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله الطاهرين.

حرر بتاريخ 9 شهر رجب 1437 هـ. ق.

17 نيسان 2016 م. ش.

الضاحية الجنوبية لبيروت ـ لبنان

جعفر مرتضى الحسيني العاملي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ❁
مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ❁
سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ❁
وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ❁
فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾.

صدق الله العلي العظيم

الفصل الاول:

متى نزلت سورة المسد؟! وشان نزولها..

بداية:

قالوا: إن سورة المسد مكية.

وقالوا أيضاً: إنها نزلت حين حصر المشركون المسلمين في شعب أبي طالب[1].

وهذا يعني: أنها نزلت في السنة السابعة، لأن حصر المسلمين في الشعب كان في هذه السنة على أشهر الروايات.

ولكن هناك نص يقول: إن هذه السورة نزلت حين أمر الله تعالى نبيّه بأن ينذر عشيرته الأقربين، ونص هذه الرواية كما يلي:

في الصحيحين، وغيرهما ـ والنص لمسلم ـ: عن ابن عباس قال:

«لما نزلت ﴿**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**﴾[2]. خرج «صلى الله عليه وآله» حتى صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه.

[وفي نص آخر: نادى قريشاً، فاجتمعوا له].

---

(1) الدر المنثور (ط دار الفكر سنة 1414 هـ) ج8 ص665 عن دلائل النبوة لأبي نعيم.

(2) الآية 214 من سورة الشعراء.

فقالوا: من هذا الذي يهتف؟!

قالوا: محمد.

فاجتمعوا إليه.

فقال: يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب.

فاجتمعوا إليه.

فقال: أرأيتم إن أخبرتكم: أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟!

قالوا: ما جربنا عليك كذباً.

قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

فقال أبو لهب: تباً لك، ما جمعتنا إلا لهذا، ثم قام. فنزلت ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**﴾ الخ..»[1].

توضيح:

يا صباحاه نداء يطلقه أحدهم ـ لإنذار الناس من أمر عظيم يباغتهم ـ ولعل سبب اختيار كلمة «الصباح» أن أكثر المهاجمات المباغتة من الأعداء كانت تحصل أول الصبح.

ونقول:

---

(1) صحيح البخاري ج3 ص143، وفتح الباري ج9 ص25 والتمهيد في علوم القرآن ج1 ص261 ومجمع البيان للطبرسي ج7 ص206 وبحار الأنوار ج18 ص164.

في الحديث المتقدم مناقشة:

إن ما ذكرته الرواية، من أن النبي «صلى الله عليه وآله» صعد الصفا، وهتف (أو أنه هتف بقريش) امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾. غير دقيق، وذلك لما يلي:

أولاً: هو لا ينسجم مع هذه الآية نفسها، لأنها تصرِّح: بأن المطلوب هو إنذار الأقربين من عشيرته، لا جميع عشيرته، فلا يحتاج إلى الصعود على الصفا، ولا إلى أن ينادي قريشاً، ولا غير ذلك.

وإنما قد يحتاج إلى ذلك حين نزل قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

ثانياً: إن إنذار العشيرة قد حصل على نطاق ضيق، حيث إنه «صلى الله عليه وآله» حين نزلت الآية أمر علياً «عليه السلام» أن يصنع طعاماً، ودعا إليه بني هاشم، قيل: وبعض بني المطلب أو بني عبد المطلب. وكانوا أربعين رجلاً، فأكلوا وشربوا ثم تفرقوا في اليوم الأول، ولم يتمكن النبي «صلى الله عليه وآله» من إبلاغهم ما يريد، بسبب وقاحة أبي لهب.

ثم صنع طعاماً في اليوم الثاني، ودعاهم، وأبلغهم ما يريد، فراجع[2].

---

(1) الآية 94 من سورة الحجر.

(2) راجع هذه القضية في: تاريخ الأمم والملوك ج2 ص63 ومختصر تاريخ أبي الفداء (ط دار الفكر ـ بيروت) ج2 ص14 وشواهد التنزيل ج1 ص372 و 421 وكنز العمال (الطبعة الثانية) ج15 ص16 و 113 و 117 و 130 عن ابن إسحاق،

ثالثاً: تقدم: أن سورة المسد قد نزلت حين كان المسلمون محصورين في شعب أبي طالب كما قال أبو نعيم في دلائله.

وابن جرير وصححه، وأحمد، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبي نعيم، والبيهقي معاً في الدلائل، وتاريخ ابن عساكر، ترجمه الإمام علي (بتحقيق المحمودي) ج1 ص87 و 88 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج13 ص244 عن الإسكافي، وحياة محمد لهيكل (الطبعة الأولى) ص286.

وراجع: مسند أحمد ج1 ص159 وكفاية الطالب ص205 عن الثعلبي، ومنهاج السنة ج4 ص80 عن البغوي، وابن أبي حاتم، والواحدي، والثعلبي، وابن جرير، ومسند أحمد ج1 ص111 وفرائد السمطين (بتحقيق المحمودي) ج1 ص86 وإثبات الوصية للمسعودي ص115 و 116 والسيرة النبوية لابن كثير ج1 ص460 و 459 والغدير ج2 ص278 ـ 284 عن بعض من ذكرنا، وعن: أنباء نجباء الأبناء ص46 و 47 وشرح الشفاء للخفاجي ج3 ص37.

وراجع أيضاً: تفسير الخازن ص390، وكتاب سليم بن قيس وغيرهم، وخصائص النسائي ص86 الحديث 63، وراجع: بحار الأنوار ج38 ص144 والدر المنثور ج5 ص97 عن مصادر كنز العمال، لكنه حرَّف فيه، ومجمع الزوائد ج8 ص302 عن عدد من الحفاظ بإسقاط منه أيضاً، وينابيع المودة ص105 وغاية المرام ص320 وابن بطريق في العمدة، وتفسير الثعالبي، وتفسير الطبري ج19 ص75 والبداية والنهاية ج3 ص40 وتفسير ابن كثير ج3 ص350 و351.

وكما يدل عليه أن سورة المسد قد أشارت إلى ما كانت تفعله أم جميل زوجة أبي لهب، حيث كانت تجمع الحطب ذي الشوك، وتلقيه ـ ليلاً ـ في طريق رسول الله «صلى الله عليه وآله».

وهذا إنما كان يحصل منها حين أظهرت قريش كل حقدها، وشرعت في إيذاء الرسول، ومن أسلم معه.

وهذا الإيذاء لم يكن موجوداً حين أمر الله تعالى نبيه بإنذار عشيرته الأقربين، لأن إنذار العشيرة قد حصل في أوائل البعثة، ولعله حصل في السنوات الثلاث الأولى، حين كان الإسلام بين السرية والعلن، ولم يكن قد عَرف بنبوة النبي إلا أفراد قليلون جداً، وكانوا متكتمين على أمرهم.. ولم تكن قريش قد أظهرت أحقادها.

ما المقصود بالبعثة؟!:

وقد أشرنا في كلامنا السابق إلى بعثة رسول الله «صلَّى الله عليه وآله»، فهل هناك فرق بينها وبين النبوة؟!

ونجيب:

بأن من المعلوم: أننا نقصد بالنبوَّة: هو أن يكلِّم الله تعالى أحد الأصفياء، إما على سبيل الوحي إليه، والإلقاء في روعه..

أو أن يخلق له كلاماً يسمعه من شجرة، أو من نار موقدة، أو نحو ذلك.

أو يرسل إليه ملكاً، فيوحى بإذنه، قال تعالى: **﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ**

عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1].

وفي الروايات عن الإمام الصادق «عليه السلام»: «إنه إذا كان الوحي من الله إلى النبي مباشرة، ولم يكن بينهما جبرئيل أصابه ما يشبه الغشية والنوم لثقل الوحي من الله، وإذا كان بينهما جبرئيل (أو سمع الكلام من وراء حجاب) لم يصبه ذلك»[2].

ومن المعلوم: أن النبي «صلى الله عليه وآله» يكون رسولاً، حين يُبْعَث للأمة قائداً، ومدبراً، وهادياً، وإنما حصل ذلك لنبينا حين صار في سن الأربعين، فالرسول لديه مهمات إصلاحية، وتربوية، وتبليغية، وتدبيرية، تهدف إلى حل مشكلات الناس، ورفع مستواهم، ودعوتهم إلى دين الله، وتدبير شؤونهم، وإيصالهم إلى غاياتهم الفضلى في مختلف المجالات.

أما النبي، فليست لديه مهمات من هذا القبيل، بل يكون نفس وجوده كنموذج للشخصية الإلهية، المتوازنة، والفاضلة، والتقية، والملتزمة بالأحكام، وبالأخلاق والقيم، ليرى الناس هـذا الكمال، وليلمسوا عملياً هـذا الخير، والصلاح والسلام، المحبب للنفوس، والذي يبعث فيه الشعور بالسكينة، وتدعوه إلى تحسس لذة هذه المعاني، وإدراك بعض ما تختزنه من رقي وسمو،

---

(1) الآية 51 من سورة الشورى.

(2) تفسير الميزان للطباطبائي ج18 ص80 عن التوحيد للصدوق، والأمالي للشيخ الطوسي، وبصائر الدرجات.

وما يمكن أن تستدرجه من ألطاف، وعطايا إلهية، وما يعزز الكرامة الإنسانية، ويحفظ لها منجزاتها.

وعلى هذا فقد يكون الإنسان نبياً عشرات السنين قبل أن يجعله الله رسولاً، ويكلفه بمهمات تهدف إلى تولي شؤون الأمة، وتعليمها، وتربيتها، وحل مشكلاتها.

وقد روي عن نبينا الأعظم «صلى الله عليه وآله» قوله: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»، أو «بين الروح والجسد»[1].

---

(1) راجع: الإحتجاج ج2 ص248 والفضائل لابن شاذان ص34 والبحار ج15 ص353 وج50 ص82 والغدير ج7 ص38 وج9 ص287 ومسند أحمد ج4 ص66 وج5 ص59 و 379 وسنن الترمذي ج5 ص245 ومستدرك الحاكم ج2 ص609 ومجمع الزوائد ج8 ص223 وتحفة الأحوذي ج7 ص111 وج10 ص56 والمصنف لابن أبي شيبة ج8 ص438 والآحاد والمثاني ج5 ص347 وكتاب السنة لابن أبي عاصم ص179 والمعجم الأوسط ج4 ص272 والمعجم الكبير ج12 ص73 وج20 ص353 والجامع الصغير ج2 ص296 وكنز العمال ج11 ص409 و 450 وتذكرة الموضوعات للفتني ص86 وكشف الخفاء ج2 ص129 وخلاصة عبقات الأنوار ج9 ص264 عن ابن سعد، ومستدرك سفينة البحار ج2 ص392 و 522 عن كتاب النكاح، وعن فيض القدير ج5 ص69 وعن الدر المنثور ج5 ص184 وفتح القدير ج4 ص267 والطبقات الكبرى ج1 ص148 وج7 ص59 والتاريخ الكبير للبخاري ج7 ص274 وضعفاء العقيلي ج4 ص300 والكامل لابن عدي ج4

أي أن النبوَّة قد تبدأ قبل الرسالة بسنوات كثيرة، ويؤكد ذلك قوله تعالى: عن يحيى «عليه السلام»: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾(1).

وقوله عن عيسى «عليه السلام»: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً قَالَ إِنِّي عَبْدُ الله آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً﴾(2).

كما أن النبي قد لا يصير رسولاً أصلاً.

ص169 وج7 ص37 وعن أسد الغابة ج3 ص132 وج4 ص426 وج5 ص377 وتهذيب الكمال ج14 ص360 وسير أعلام النبلاء ج7 ص384 وج11 ص110 وج13 ص451 ومن له رواية في مسند أحمد ص428 وتهذيب التهذيب ج5 ص148 وعن الإصابة ج6 ص181 والمنتخب من ذيل المذيل ص66 وتاريخ جرجان ص392 وذكر أخبار إصبهان ج2 ص226 وعن البداية والنهاية ج2 ص275 و 276 و 392 وعن الشفا بتعريف حقوق المصطفى ج1 ص166 وعن عيون الأثر ج1 ص110 والسيرة النبوية لابن كثير ج1 ص288 و 289 و 317 و 318 ودفع الشبه عن الرسول ص120 وسبل الهدى والرشاد ج1 ص79 و 81 و 83 وج2 ص239 وعن ينابيع المودة ج1 ص45 وج2 ص99 و 261.

(1) الآية 12 من سورة مريم.

(2) الآية 51 من سورة الشورى.

ومن المعلوم: أن كل فضيلة ثبتت لأي نبي من الأنبياء، فهي ثابتة لنبينا «صلى الله عليه وآله»، فنبوة عيسى «عليه السلام» قد بدأت منذ ولادته، أما رسوليته للناس، فلعلها حصلت له بعد سنوات.

الفصل الثاني:

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ..

(تَبَّتْ):

تبدأ هذه السورة المباركة بكلمة ﴿تَبَّتْ﴾ وفي هذه الكلمة أمور عديدة، تحتاج إلى بيان.

ونحن نذكرها على النحو التالي:

معنى التباب:

يقول الراغب الأصفهاني في مفرداته عن التباب: إنه الخسران المستمر.

ويقول الطبرسي في مجمع البيان: التباب: هو الخسران المنتهي بالهلاك في الدنيا وفي الآخرة.

وعند بعض اللغويين: إنه القطع والبتر.

ونقول:

المراد بالتباب في هذه السورة يستوعب جميع هذه المعاني، فقد أخبر الله تعالى فيها عن خاسر وخائب سوف يستمر تبابه وخسرانه في الدنيا وفي الآخرة، حيث تكون نهايته فيها هو الهلاك الفادح والفاضح.. حين يصلى ناراً ذات لهب.

فظهر معنى الاستمرار في الخيبة، وظهر معنى بلوغه حد الهلاك أيضاً، وظهر معنى البتر والقطع من رحمة الله.

وظهر أيضاً: كيف أن التباب والخسران مطلقاً يصح انطباقه على جميع الحالات.

بين الماضي والمستقبل:

وقد رأينا: أن الله تعالى تحدث في البداية عن التباب والخسران بصيغة الماضي: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**﴾ ثم وصله بالمستقبل، بإخباره عن هلاكه في المستقبل أيضاً..

فاتضح بذلك: أن هذا المشؤوم خاسر في الحاضر أيضاً، لأن هذا التباب الذي حصل في الماضي سوف يستمر ويتواصل، ويمتد إلى الآخرة، حيث يصلى فيها ناراً ذات لهب. والاستمرار المشار إليه لا بد أن يمر في الحاضر، ليستقر في المستقبل.

لماذا بصيغة الماضي؟!:

وقد رأينا: أن كلمة ﴿**تَبَّتْ يَدَا**﴾ وكلمة ﴿**وَتَبَّ**﴾ قد جاءتا بصيغة الماضي.

ولعل السبب في ذلك: هو تأكيد حصول هذا الأمر بصورة جازمة بسبب اجتماع، واكتمال علله إلى حد أنه يخبر عن حاضره ومستقبله، وكأنهما قد حصل التباب فيهما، وانتهى الأمر، فكأنهما أصبحا من الماضي.

ومن المعلوم: أن الزمان لا معنى له بالنسبة لله تعالى.. والماضي والحال والاستقبال إنما هو بالنسبة لنا نحن البشر.

أما الله تعالى، فهو يرى الأشياء بحقائقها، مجردة عن الأزمنة. ولكن البشر زمانيون، يفهمون الأمور بحسب الحصص الزمانية.

فظهر: أن هاتين الكلمتين: ﴿**تَبَّتْ يَدَا**﴾ و ﴿**وَتَبَّ**﴾ خبران، وليستا دعاء على أبي لهب. فإن معنى الدعاء هو الطلب من الغير فعل أمر بعينه، حيث لا يتمكن الداعي من فعله.

ولا مورد لهذا الكلام هنا.. فإن الله هو الذي يتولى إنزال العقوبات بالمجرمين، ولا يستنجد بأحد، ولا يعجز عن أحد.

(تَبَّتْ يَدَا):

وهنا سؤالان:

أولهما: أنه تعالى قال: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ**﴾، فلماذا لم يقل: تَبَّ أَبِو لَهَبٍ؟!

الثاني: قد يقال أيضاً: لماذا تحدث عن اليدين معاً؟! ألم يكن يكفي أن يقول: تَبَّتْ يَد أَبِي لَهَبٍ؟!

ونجيب:

أولاً: بالنسبة للسؤال عن تباب اليدين معاً نقول:

إن اليدين هما أهم، وأكثر ما يعتمد عليه الإنسان في الوصول إلى مقاصده.

بل قد يكون نشاط سائر الحواس يهدف في أكثره إلى التمهيد لفعل اليدين، فإذا أراد دفع عدو، فالعين ترصده، والرجلان تحملانه إليه، والأذن تُسمعه صوت حركته.

كما أن سـائر حالات الإنسان حتى الغرائز والشهوات، وحتى العقول والإدراكات حتى الباطنية منها، كثيراً ما تهيئ أيضاً لفعل اليدين.

فإذا واجه الإنسان ما يحتاج إلى القوة، فإن يديه هما أول الوسائل التي تباشر العمل، وإذا احتاج الإنسان إلى الحرف والصناعات أيضاً، فإنه سيكون بحاجةٍ اليدين.

وكذلك الحال بالنسبة لأعمال الكسب بالتجارة، أو الزراعة، وسائر موارد الكسب، وفي طلب العلم، وفي الدفاع عن النفس، وحتى في الحروب العدوانية أيضاً تجده يستفيد من يديه، وهما من أهم ما يحتاج إليه في ذلك كله.. فضلاً عن حاجته الماسة إليهما في أكثر حركاته وحاجاته الشخصية والاجتماعية، كالأكل والشرب، وأي فعل آخر..

وهذا كله يدلنا على أن تباب وخسران اليدين سيكون بمثابة الكارثة، والعذاب العظيم، لأي كان من الناس.

ولو أن إنساناً قطعت إحدى يديه، أو تعطلت، فإنك سترى أنه يعيش حياته في حرج واختلال، فكيف إذا حصل ذلك لكلتي يديه، وأصبح كلَّاً على الآخرين، وعالة على المحسنين، محتاجاً إلى مساعدتهم، وينتظر عطفهم، ويخشى نفاذ صبرهم.

ثانياً: بالنسبة لعدم اقتصار الآية على إثبات التباب لشخص أبي لهب، بزعم أن هذا يغني عن ذكر تباب اليدين، نقول:

لا يغني أحدهما عن الآخر، فإن لنسبة التباب إلى نفس شخص أبي لهب فوائد مهمة.

منها: أن تباب يديه يؤكد: أنه إنسان مشؤوم ومحتقر، وغير ذي قيمة وفق المعايير الإلهية والإنسانية، وخيبته هذه، تدعو الناس إلى الابتعاد عنه، والتحفظ في تعاملهم معه..

وهذا يزعجه، ويؤذيه، ويؤدي به إلى شعوره بالفشل والإحباط.

كما أن ذكر التباب لشخص أبي لهب لا يغني عن التصريح بتباب يديه، فإن الخائب في نفسه، الذي ينفر الناس منه، قد يرى أن لديه قوى ووسائل تفيده في التغلب على حالة التباب التي يعيشها، فيرى مثلاً: أن لديه نفوذاً أو جاهاً يمكنه أن أن يستفيد منه في تذليل الصعوبات، وبلوغ الحاجات..

ولكنه حين يكون خائباً وخاسراً، فإن هذه الكوامن، كالجاه والأخلاق، ونحوهما.. سوف تتعطل، وتبقى من دون دور، بل قد يكون لها دور سلبي إذا استعملها الخائب في غير ما يرضي الله سبحانه، فكيف إذا كان لا يملك من هذه الوسائل شيئاً، بل لديه ما ينافرها، كما لو كان فظاً غليظاً، ظالماً، وقاسياً، وما إلى ذلك، ويرى أن جوارحه سليمة وقادرة، ويداه طليقتان؟! فقد يبادر إلى تحريك قدراته، بعد تحديد أولوياته، وأهدافه، والانطلاق إليها.. فيعتدي ويسرق، ويغتصب، ويسلب الأموال، ويقهر الضعفاء. ويفسد في الأرض، ويهلك الحرث والنسل، فيسخر ما لديه من قدرات، وفكر شيطاني، وجرأة في هذا السبيل.. ولا يبالي بحلال ولا حرام، ولا يلتفت إلى ما تفرضه القيم والأخلاق والأعراف.. ظناً منه: أن ذلك كله يخرجه من حالة الخيبة والخسران والتباب.

لماذا بدأ بالتباب لليدين؟!:

وقد بـدأ بذكر تباب اليدين، مع أنه قد يتوهم: أن الأولى هو الـبدء بالحديث عن تباب الشخص.

ربما لأن تباب اليدين هـو الأقرب إلى إدراك أبي لهب، وهـو الأوضح، والأصرح، والأيسـر فهماً.. وهو الأسـرع إلى الإحساس بالخطر، لأن إدراكه لدورهما، وقيمة وحساسية هذا الدور في نظم أمره، وإيصاله إلى غاياته، إن هذا يثير مشاعره، ويخرجه من حالة السخرية واللامبالاة إلى استنفار قوي لكل قواه، لمواجهة الخطر المحتمل.

التصريح باسم أبي لهب:

ويلاحظ: أن القرآن الكريم لم يذكر بالاسم أحداً ممن غضب الله عليه من أمة محمد «صلى الله عليه وآله» سوى أبي لهب «لعنه الله».

وأبو لهب هو عم النبي «صلى الله عليه وآله»، وابن عبد المطلب الهاشمي، أعظم وأقدس بيت في العرب، وقد تربى إلى جنب عبد الله، وحمزة، وأبي طالب، وسواهم.. وهي بيئة إيمان، وتقوى، ونبل، وشهامة، وكرم ووفاء، وتضحية وعطاء.

وقـد تمرد أبو لهب على بيئته هـذه، واختار طريق الكفر، والضلال، والانحراف، فدلنا ذلك: على أن لا جبرية للمحيط، ولا هيمنة للمجتمع، بل يبقى القرار لاختيار الشخص نفسه، فقد يختار طريق الصلاح من يعيش

في محيط فاسد وبالعكس.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك: آسية بنت مزاحم، زوجة فرعون.. ولا أشر ولا أضر من بيئة فرعون المستكبر، الذي يدعي الربوبية، ويمارس مختلف أنواع الشرور والآثام، ويملك أعظم المغريات التي أحاطها بها، وأشد أنواع القوة والهيمنة، وكانت آسية زوجة هذا المستكبر العاتي، وهي التي تقول معبرة عن زهدها بدنيا فرعون: ﴿**رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ**﴾(1). وبقيت تقاوم كل أنواع الضغوط والمغريات، حتى قضت شهيدة مظلومة، رغم أنها امرأة، والناس يستضعفون المرأة على مر العصور.

ولسنا بحاجة إلى التذكير: بأن هيمنة المجتمع والمحيط الفاسد على من يعيش فيه، لا تصل إلى حد هيمنة فرعون على زوجته.

الإخبار عن المستقبل:

يلاحظ: أن هذه السورة قد ذكرت أبا لهب باسمه المعروف بين الناس، وأخبرت أنه قد خاب وخسر، وخابت يداه أيضاً، ثم بيَّنت سائر آيات هذه السورة: أن هذا الخسران والتباب لأبي لهب ولزوجته أيضاً باق ومستمر في الدنيا والآخرة. وأنه سيكون جهنمياً، وكذلك زوجته.

وهذا معناه: أن هذين الشخصين لن يؤمنا أبداً، وأنهما سيواصلان

(1) الاية 11 من سورة التحريم.

نصرة الشرك وأهله إلى الممات.

وهذا إخبار عن الغيب، الذي يدل تحققه على صحة ما جاء به «صلى الله عليه وآله»، وأنه لا يخبر بشيء من عند نفسه، بل هو من عند الله تبارك وتعالى.

لاسيما وأننا نرى الكثيرين يحاربون الدين وأهله ردحاً من الزمن، ثم يفوزون بنعمة التوبة والهداية.

التباب والخيبة:

وإذا أمعنا النظر في معنى التباب، فسنجد: أن من تكون له مقاصد وحاجات لا يتمكن من الوصول إليها، يرى نفسه خاسراً وخائباً.

وقد تكون الخيبة للشخص نفسه، حيث يرى نفسه فاشلاً في كل نشاطاته، بسبب سوء عمله، وتوالي شروره وإساءاته، فيصاب بالحسرة البالغة.

فإذا انضم إلى ذلك: فقدانه الوسائل التي كان يرجو أن تكون عوناً له لبلوغ مقاصده، ومنها يداه، حيث تصبحان خاسرتين، فاقدتين للجدوى، فهما كالمشلولتين أو المقطوعتين، فإن حسرته تتعاظم، وبلاءه يزداد.

ما أغنى عنه ماله وما كسب:

والارتباط الوثيق بين هذه الآية وسابقتها لا يكاد يخفى على أحد، لأن الإنسان الذي يفقد وسائل إيصاله إلى مقاصده وحاجاته، كاليدين مثلاً، ويصبح خائباً في نفسه أيضاً، قد لا يفقد الأمل في التغلب على المصاعب، إذا كان يملك الأموال مثلاً، فإن أمله بالمال كبير، ويرى أنه يحل به مشاكله، ويصل به إلى غاياته. فبالمال يعلِّم أولاده، وبه ينجز أعماله، وبه يعالج

مرضاه، وبه يبني قصوره، ويحصنها، ويستأجر الرجال لصيانتها.. وبه يعد الجيوش لحرب الأعداء، وبه يصلح أرضه، ويواصل زراعتها، واستثمار أشجارها، وبالمال يصل إلى مختلف غاياته ومقاصده.

ولكن الله تعالى يقول: إن أبا لهب قد فشل حتى في توظيف ماله لتحقيق أغراضه، وأصبح هذا المال جماداً، لا نفع، ولا حركة، ولا فائدة، ولا حياة فيه.. وبذلك يكون التباب حاصلاً لنفس الشخص، وليديه، ولماله أيضاً.. فضلاً عن جاهه، وعلاقاته، وما إلى ذلك. فالجميع في دائرة الخسران والتباب.

فيا له من شؤم فيه، وحسرة عليه**!!**

(مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ):

1 ـ وقد قال تعالى هنا: ﴿**مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ**﴾، ولم يقل: «لم يغنِ»، وذلك لأن كلمة «أغنى» هي التي تتوافق مع قوله في الآية قبلها: ﴿**تَبَّتْ يَدَا... وَتَبَّ**﴾. وكأنه تعالى بصدد الإخبار عن أن حال أبي لهب في جميع المراحل: «الماضي، والحاضر، والمستقبل»، بحكم الحاصل بالنسبة للمخلوقات الزمانية، وأمر حاصل بالفعل بالنسبة إليه تعالى، لأن الحقائق حاضرة لديه تعالى مجردة من الزمان.

2 ـ والتعبير بـ ﴿**مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ**﴾ يراد به: أن ماله لم يحقق له أغراضه. يقال: ما أغنى فلان عن فلان شيئاً. أي أنه أراد أن يقوم مقامه في تحقيق مقاصده، ففشل في ذلك، تماماً كما لم يغنِ عنه ولده، أو عشيرته، أو جاهه

وموقعه.

3 ـ إن هذا إخبار غيبي آخر، لا يطلع عليه إلا علام الغيوب، وهو من دلائل صحة ما جاء به رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وكان على المشركين الذين عايشوا كل هذا الذي يجري أن يرتدعوا عن المكابرة والعناد، ويسلموا له «صلى الله عليه وآله». لاسيما وأن الأمور قد تكون أكثر وضوحاً في الاتجاه الآخر، وهو أن يكون المال مؤثراً في حل المشكلات، والوصول إلى الغايات. فالإخبار عن عدم تأثيره إخبار عن الغيب، وهذا من الإعجاز أيضاً.

(وَمَا كَسَبَ):

وقد يسأل سائل عن مبرر قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَسَبَ**﴾، متوهماً أن ذكر المال يغني عنه، لأنه هو نفسه ما كسب، فلماذا التكرار؟!

ونجيب:

أولاً: إن المال أضيف إلى أبي لهب إضافة تمليك، وهو ظاهر في ملكيته الصحيحة والمشروعة له، أو لجزء منه. وحيث إنه لا دليل على أن جميع ما كان تحت يد أبي لهب من أموال يتصرف فيها، كانت ملكيتها مشروعة له، بل الشواهد، وظواهر سلوك هذا الرجل تشير إلى قوة احتمال أن يكون بعضه مأخوذ بطرق غير مشروعة كالميسر، والربا، والغصب، أو بيع ما لا يحل بيعه، كالميتة والخمر، وغيرهما.. فكلمة ﴿**وَمَا كَسَبَ**﴾ تجعل الكلام شاملاً حتى للمال الحرام.

ثانياً: كان أبو لهب ينفق أمواله الحلال منها وغيره في الصد عن دين

الله، ومحاصرة أوليائه، وإلحاق الأذى بهم.

فبملاحظة هذا الأمر جاء قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَسَبَ**﴾، ليدل على وجود كسب غير مالي أيضاً يوظفه أبو لهب في الوصول إلى مراداته، وكان يرى أنه يقوم مقامه في تحقيقها.. للدلالة على وجود كسب غير مالي يوظفه أبو لهب في غاياته، ويرى أن هذا الكسب يغني عنه أيضاً، ويقوم مقامه، فقوله: ﴿**وَمَا كَسَبَ**﴾ يدل على هذا النوع من الكسب، فيشمل المآثم التي كان يرتكبها أبو لهب في الصد عن دين الله بوسائل غير مالية، مثل التخويف للضعفاء، واستعمال جاهه وموقعه، وتوظيف علاقاته، وصداقاته، أو أعوانه، أو هيبته في محاربة الحق وأهله.

الخلاصة: أن جميع أنواع الكسب، والوسائل الموصلة إلى الحاجات، والمحققة للرغائب، ومنها المال الحرام، والجاه، والمقام، والقوة، والنفوذ وغير ذلك ـ كل ذلك لم يغنِ عن أبي لهب شيئاً.

ويلاحظ: أنه تعالى اختار كلمة «كسب» من دون توصيف لهذا الكسب بحلال أو حرام، كما أنه بالرغم من أن هذا الكسب محض خسران وخيبة وتباب، فإن أبا لهب، ومن معه يرونه كسباً.

فهو تعالى قد راعى في هذا التعبير هنا نظرة واعتقاد الطرف الآخر أيضاً..

(عَنْهُ):

وقد وردت في الآية كلمة ﴿**عَنْهُ**﴾ قبل كلمة ﴿**مَالُهُ**﴾ التي هي فاعل أغنى.

ولعل السبب في هذا التقديم: أنه هو المناسب لحال أبي لهب، فإنه كان يرى: أن المال يقوم مقامه في تحقيق رغباته، وأنه يغني عنه.

فيكون شخص أبي لهب، وإيجاد من يقوم مقامه ويغني عنه هو محور اهتمامه. وهذا يناسب اتصال كلمة ﴿**عَنْهُ**﴾ بكلمة ﴿**أَغْنَى**﴾. ويدل ذلك على إرادة التأكيد على شخصه هنا.

ولو أنه فصل بينهما، وقدم كلمة ﴿**مَالُهُ**﴾ على كلمة ﴿**عَنْهُ**﴾ لثار شعور

الفصل الثالث:

سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ..

المصير المشؤوم:

ثم أخبر الله تعالى عن مصير أبي لهب في الآخرة، فقال: ﴿**سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ**﴾.

ويلاحظ:

1 ـ أن هذا إخبار بأن التباب والخسران سيبقى ملازماً لأبي لهب إلى أن يموت. وهو إخبار عن الغيب كان ينبغي أن يخضع له المشركون، ويتخلوا عن العناد..

2 ـ وهذا الإخبار عن عدم إيمان أبي لهب وامرأته، لا يعني أنه مجبر على الشرك والكفر، بل هو إخبار من ذي علم، من دون تدخل من المخبر فيما أخبر عنه.. فإنك إذا أخبرت عن أن الشمس سوف تطلع غداً، فإنها إنما تطلع بالاستناد إلى العلل التي جعلها الله مؤثرة في ذلك.

وهكذا يقال لو أخبرت: بأن فلاناً سوف يأتي في الطائرة غداً، فإن خبرك هذا لا يؤثر في مجيئه، بل هو الذي يختار المجيء، ويختار وسائله.

فظهر أن إخبار الله عن استمرار أبي لهب في نصرته للشرك لا يعني أنه تعالى أجبره على هذا الضلال.

غاية الأمر، أنه تعالى يخبر عن أن أبا لهب يختار البقاء على الضلال إلى آخر لحظة من حياته.

3 ـ فمن أجل هذا وذاك، فإن عقوبة أبي لهب في المستقبل القريب المتصل بالحاضر هي: أن يصلى ناراً ذات لهب.

لا مفر من العقوبة:

ويلاحظ: أن السين في قوله تعالى: ﴿**سَيَصْلَى**﴾ تفيد أموراً، هي:

الأول: إن وقت وقوع هذا العذاب هو المستقبل.

الثاني: إنه المستقبل المتصل بالحاضر، لأن السين للتنفيس تدل على ذلك، (فإنها لأجل التخفيف عن الحاضر)، وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً**﴾.

الثالث: إن معنى كون العقوبة ستكون في المستقبل: أنه لا مفر، ولا مناص، ولا خلاص منها..

ونحن نعلم: أن من يعيش في ظل النظام والقانون البشري، لا يتورع عن مخالفة ذلك القانون إذا سنحت له الفرصة. لذلك، فهو يتحايل عليه، ويغيب نفسه عن أنظار المراقبين، ثم يبادر، فينال ما يريد، ثم يغادر.

وبذلك يأمن الملاحقة، والعقوبة، وينتهي الأمر، وحتى لو انكشف أمره، فإنه بفنون من التدبيرات، ومن التأويلات، كثيراً ما يتمكن من الإفلات.. وهيهات أن يلحق به لاحق، هيهات.

ولكن الأمر بالنسبة للشريعة وأحكامها، له مسار آخر، فلاحظ ما يلي:

1 ـ إذا كان المراقب هو علّام الغيوب، والمطّلِعْ على ما في الصدور، وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، فلا يمكن التستر منه، أو التخفي عنه.

2 ـ إن العقوبات الإلهية قد جعلت في مستقبل الإنسان.

3 ـ إن هذه العقوبات قد أخرجت من دائرة اختياره، حيث جعلت في دار هي غير دار الدنيا..

ويبقى له باب واحد، هو باب التوبة، حيث تنفع، وقد جعل الله لها شروطها وأحكامها.

4 ـ إن المحاسب هو الله العالم بكل شيء.

5 ـ إن المذنب في يد المحاسب، فلا مجال للفرار، ولا مورد للتزوير والاحتيال.

6 ـ إن الخطاب في سورة المسد، خطاب مفعم بالتحدي وينضح بالإذلال، ويوجه لجبار مستكبر، وحاقد، وحاسد، مستهتر، ولئيم، يسعى لإطفاء نور الله، ويتعمد إلحاق الأذايا بخير خلق الله.

ومن المعلوم: أن وقع هذه التهديدات الإلهية سيكون عليه أشد، وأثره أكبر مما نتصور.

وقد كان اجتماع هذه الأمور كلها أدعى لردع هذا الجبار عن غيه، ومراجعة حساباته، والسير في خط الصلاح والإصلاح، ولكنه لم يفعل ذلك.

فلا يتصورن أحد: أن هذا التهديد والوعيد يصبح بلا معنى.. لأن هذه

السورة ستبقى درساً لكل ضال، ومنحرف، فإذا كانت درجة الاستكبار، والحسد، والعناد، واللجاجة منخفضة لديه، فإنه سوف يهتدي إلى طريق الصواب، ويستفيد من هذا الخطاب.

(سَيَصْلَى):

والمراد بالاصطلاء: هو مقاساة حر النار، وهذا إنما يكون إذا كانت هذه المقاساة تدريجية، كما سنرى.

ويلاحظ هنا: أنه تعالى لم يأمر الملائكة بأن يصلوه حر النار كما قال: ﴿**خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ**﴾.

ولم يتهدده: بأن يفعل هو تعالى ذلك به، كما قال في سورة المدثر: ﴿**سَأُصْلِيهِ سَقَرَ**﴾[1]. لأن المتكبر قد يتهم حتى الذات الإلهية بالظلم والتعدي أيضاً، وذلك زيادة في المكر، وإظهاراً لخبث النوايا، والكافرون يكذبون ويفترون حتى في الآخرة.

1 ـ ويأتي هنا سؤال، عن سبب اختيار كلمة ﴿**سَيَصْلَى**﴾ في هذا المورد، وحيث لم يقل: سنعذبه في الجحيم مثلاً.. مع أنه قال في مورد آخر: ﴿**خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ**﴾[2].

بل قال: سيصلى: أي أنه هو الذي يفعل ذلك بنفسه من خلال أعماله،

---

(1) الآية 26 من سورة المدثر.

(2) الآيتان 30 و31 من سورة الحاقة.

فعمله يستدرج من العذاب ما يوازيه، فلا مجال لظن التشفي أو الزيادة في العذاب من دون سبب، لأن جحوده للحق، واستكباره وإجرامه هو الذي يصنع جهنمه، ويؤجج نارها، على قاعدة **﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾**[1].

وفي الرواية: إنما هي أعمالكم ترد إليكم[2].

فإذا كان الإنسان يعذب بنفس أعماله، فيكون كالذي يجلد نفسه، أو يحرق نفسه بالنار، فإن عذاباً كهذا، سيكون أشد مرارة له، مما لو عذبه غيره ـ كالملائكة أو غيرهم.

فما بالك إذاك كان هذا المجرم المعذب لنفسه بنفسه جباراً أو طاغياً كأبي لهب؟!

2 ـ والصلي ليس أن تضع الشيء في النار، ليحترق دفعة واحدة، كما

---

(1) الآية 35 من سورة التوبة.

(2) التوحيد للمفضل ص50 والحكايات للمفيد ص85 وبحار الأنوار ج3 ص90 وج10 ص454 ومستدرك سفينة البحار ج8 ص266 وكنز الدقائق (تفسير) ج1 ص284 وراجع: فيض القدير ج1 ص342 وكشف الخفاء ج1 ص216 وج2 ص54 وتفسير الآلوسي ج30 ص79 وتهذيب الكمال ج16 ص379 وتاريخ ابن خلدون ج1 ص190.

يحترق البنزين أو نحوه، بل أن يقرب المجرم إلى النار لكي تلفحه بحرارتها، وتؤثر فيه، كما تؤثر في أي شيء آخر يقرب منها، وتغير بعض أحواله.

فإذا كانت النار التي سوف يصلاها أبو لهب ناراً عظيمة، لاسيما مع تنكير كلمة «نـاراً»، المفيد للتهويل. فإن تأثير هذه النار سـيكون هائلاً.. لاسيما وأن ظاهر الجلد هو مركز الخلايا التي تجعل الإنسان يشعر بالألم.. وقد قال تعالى: ﴿**كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا**﴾[1].

ولأجل ذلك تجد: أن المجروح، أو المحترق يتألم كثيراً حين يكون الجرح أو الحرق في الطبقة الأولى من الجلد، فإذا تجاوزت الآلة الجارحة، أو النار الحارقة هذه الطبقة، فإن الألم يخف.

3 ـ إن هذا الاصطلاء سوف تبقى معه حياة وشعور، وإدراك للمصطلي، ليشعر بالآلام العظيمة..

ولا بد من الاستمرار على هذه الحال.

4 ـ إذا لم يردعه هذا التهديد، فإن الله تعالى سيزيده عذاباً، وخزياً، لأنه كلما ازداد صلابة وإصراراً على الجحود، كلما احتاج إلى المزيد من النار واللهب لتعيده إلى الحالة الطبيعية.

سيصلى مرة أخرى:

1 ـ وقد قال تعالى عن أبي لهب: ﴿**سَيَصْلَى نَاراً**﴾ ولم يقل: سأصليه،

---

(1) الآية 56 من سورة النساء.

وسنصليه.

ولعل السبب في ذلك: أنه لو قال: سأصليه، أو نصليه قد يتوهم بعض الناس من ذوي الأغراض: أن هذا العذاب، قد لا يكون على قدر الاستحقاق بسبب أعماله، لأن التشفي، والانتقام، وتدخل الانفعالات النفسية فيه، سوف تنميه وتذكيه.

2 ـ قال: ﴿**سَيَصْلَى**﴾، ولم يقل: سوف يصلى، لأن السين تفيد حصول ما بعدها مباشرة، وبلا فصل عن الحاضر.

ولو قال: سوف يصلى، لدل ذلك على وجود فاصل زماني ـ يطول أو يقصر ـ وهذا يخفف من وقع هذا التهديد على أبي لهب.

وسيرى نفسه في فسحة، وقد يجد ـ بزعمه مخرجاً ـ وإن لم يجده فعلاً، فإن مرور الزمان يخفف من شعوره بالخطر، ويَنْجَرُّ إلى تلاشي صورة هذا العذاب في مخيلته، ولذا يقال: سوف للتسويف. أي تمضيه الوقت.

فالله تعالى يستفيد من السين هنا لتهديد أحد جبابرة قريش: بأن العذاب واقع لا محالة، وأنه شديد، وأنه قريب منه، ولا مفر له منه، ولا محيص عنه.

لماذا قال: ﴿نَاراً﴾؟!:

وقد قال تعالى: ﴿**سَيَصْلَى نَاراً**﴾ فذكر ناراً منكَّرة، ولم يقل: النار مع ال التعريف..

ولعل سبب ذلك أمران:

الأول: أن هذا التنكير يفيد التهويل، لأن يشعره بأن خياله لن يكون قادراً على الإحاطة بأحوالها، وما ينتج عنها. فهي نار لا يتوقعها، ولا يتصورها أحد، ولا تخطر على قلب بشر.

ومما يدل على أن المطلوب هنا هو التهويل: قوله تعالى: ﴿**ذَاتَ لَهَبٍ**﴾ مع تنكير كلمة «لهب» أيضاً.

الثاني: لو قال: النار بـ «ال» التعريف لفهم منه: أنه يقصد ناراً توازي هذه النار التي نعرفها في هذه الدنيا.

وهذا قد يدعو «أبا لهب» إلى الاستهانة بهذا العذاب. وكذلك الحال إذا سمعنا بالجنة، فإننا نتصورها من خلال البساتين والرياض التي شاهدناها في حياتنا هذه.

فهذا التنكير يصرف أذهاننا إلى آفاق أوسع، ومجالات أرحب.

قيمة هذا التهديد:

إن الإنسان العاقل والمتوازن لا يقتحم مواقع الخطر المظنون أو المحتمل، إلا إذا كان يرجو من اقتحامه الحصول على ما هو أهم من الضرر التي يتحمله أو يظنه، فلا يسلك أحد طريقاً يظن أن فيه أسداً مفترساً لا يرحم ولا يقدر على دفعه عن نفسه، وكذا لو كان في الطريق عدو غاشم..

كما لا يقدم على أكل مسحوق يدور أمره بين أن يكون سكراً أو أن يكون سماً.

كما أن الإنسان لا يلقي نفسه في وهدةٍ يحتمل أن يكون في قعرها جمر

حارق، أو حيوان مفترس.

ولكن أبا لهب لم يتأثر، ولم يتراجع عن غيِّه، بالرغم من هذا التهديد والوعيد الإلهي، المشفوع بالدلائل الكثيرة، والمعجزات الوفيرة على صدق نبوة النبي «صلى الله عليه وآله» وصحة ما جاء به.. ومنها: هذه الإخبارات الغيبية التي كان يظهر صدقها باستمرار، فضلاً عن كرامات ومعجزات أخر كان الله تعالى يتحفه بها، مثل: سلام الشجر والحجر عليه، وطاعة الجمادات له، حتى أنه ليأمر الشجرة أن تأتيه، فلا تمتنع، وكان الحصى يسبح في يده، كما أن هذا القرآن يتحدى الناس جميعاً، ويعجزون عن الإتيان بسورة من مثله، وغير ذلك..

ثم يصر أبو لهب بالرغم من ذلك كله وسواه على موقفه، وعلى محاربته للحق وأهله، من دون أن يحصل في مقابل ذلك على أي شيء سوى الخيبة والخسران، والذل والهوان..

وبالرغم من هذا التهديد الصريح في هذه السورة لأبي لهب، فإنه لا يرى في ذلك كله ما يدعوه إلى التردد في اقتحام هـذه المهالك التي تكثر الدلالات عليها، والإشارات إليها.

وإذا أردنا أن نفسر هذا الإصرار على اقتحام الأخطار، فإننا لا نجد مبرراً له سـوى الاستكبار، المتمازج مع الحسـد، وهو الذي أودى الاستكبار بفرعون إلى أشـر وأضـر الدركات، حيث ادعى الربوبية، ومارس الظلم والعدوان في أفحش صوره، وأخبث حالاته.

وهذا ما أودى بأبي لهب الجبار الحاقد، والحاسد، الذي أشبه إبليس في استكباره، وفي حسده لآدم «عليه السلام».

ذات لهب:

ونعيد التذكير: بأنه تعالى قال: ﴿**ناراً ذَاتَ لَهَبٍ**﴾، فجاءت كلمة لهب منكرة، وذلك للتهويل باللهب أولاً.. ثم التهويل ثانياً بالإبهام والتنكير له، ليدل على أنه لهب ليس كاللهب الذي رأيناه وعرفناه، بل لهب لا يخطر على بال، ويتجاوز كل تصور.

وكل ذلك بهدف الردع عن هذا الغي الظاهر.. فإن لم يرتدع أبو لهب به، فإنه يكون درساً لغيره، الذين سيدركون أن مصير أبي لهب، قد يكون مصير كل مستكبر حاسد وحاقد..

ما المراد باللهب؟!:

والسؤال هنا هو: هل اللهب هو عين النار؟! أو غيرها مما يلحق بها، أو يضاف إليها، لكونه من حالاتها؟!

ونجيب:

إن اللهب نوع من النار وهو الذي يظهر حين يشتد، ويزداد تأجج، وتوهج الجمر، ويكون على شكل ألسنة لهب صغيرة تخرج من حنايا الجمر المتأجج، ولا يصاحبه دخان، وهو على درجة من الشفافية، والرقة.

أما اللهب الذي يتصاعد حين احتراق الحطب مثلاً ويصاحبه دخان، فليس هو اللهب، بل هو نار عادية، تكون حرارتها أضعف من حرارة اللهب. فقوله: ﴿**ذَاتَ لَهَبٍ**﴾ يدل على شدة توقد وتوهج النار، ويدل أيضاً على شدة

حرارتها. وهذا ادعى في انزجار من يوجه إليه تهديد ووعيد بمثل هذه النار.

الفصل الرابع:

وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَد..

مما سبق:

وبعد أن تقرر في الآية الأولى: هلاك أبي لهب كشخص..

وتقرر في الآيتين: الثانية، والثالثة: هلاك أبي لهب كحركة ونشاط، ووسائل وسعي.. ثم بيَّن تعالى آثار هذا الهلاك، حيث فقد هو، وفقدت وسائله أيضاً أي أثر يقربه من تحقيق أغراضه، كما ظهر في قوله تعالى: ﴿**مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ**﴾، سواء كان ما يكسبه مالاً، أو ولداً، أو أعواناً، أو جاهاً، أو ما إلى ذلك..

ثم بيَّن تعالى آثار أعمال، وتبعات سعي هذا الخائب الخاسر في الآخرة، فقال: ﴿**سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ**﴾.

فبعد كل هذا عطف عنان الكلام ليتحدث عن امرأة هذا الرجل، وسعيها أيضاً لإطفاء نور الله، فاستحقت أن تكون قرينته في العذاب، كما هي شريكته في السعي الخائب، فقال: ﴿**وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ**﴾.

وَامْرَأَتُهُ:

إن الانتقال من الحديث عن أبي لهب، إلى الحديث عن امرأته، قد يعطي انطباعاً مفاده:

أولاً: أن الأمر لم يقتصر على الرجل، ممثلاً في شخص أبي لهب، بل تعداه

إلى عنصر المرأة الذي كان المجتمع الجاهلي ـ كما يتوقع أو يفترض ـ يحظر عليها أي نشاطات من هذا القبيل..

ثانياً: إن عنصر المرأة كان يملك حصانة اجتماعية ودينية، تمنع من مجازاتها على ما يصدر منها، كما أشار علي «عليه السلام» بقوله:

«ولا تهيجوا النساء بأذى، وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم، فإنهن ضعيفات القوى والأنفس والعقول. إن كنا لنؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات. وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالفهر (وهو الحجر ملء الكف)، أو الهراوة (العصا)، فيعير بها وعقبه من بعده»(1).

لماذا لم يقل زوجته؟!:

وقد يسأل سائل، فيقول: لماذا قال تعالى: امرأته، ولم يقل: زوجته، أو لماذا لم يذكرها باسمها، أم جميل، كما سمى زوجها بأبي لهب؟!

---

(1) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج3 ص56 الكتاب رقم14 وصفين للمنقري ص302 ومن لا يحضره الفقيه ج4 ص392 وتحف العقول ص87 ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج4 ص218 ومكارم الأخلاق للطبرسي ص218 والكافي ج5 ص38 و 39 وبحار الأنوار ج74 ص233 وج100 ص352 وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج16 ص122 وينابيع المودة ج3 ص442 وتاريخ الأمم والملوك (ط ليدن) ج6 ص3282 والفتوح لابن أعثم ج3 ص44 وعن مروج الذهب ج2 ص731.

ويجاب:

أن المراد بالمرء: الإنسان، فإذا دخلت عليها تاء التأنيث، فصار «المرأة» عرف أن المقصود هو الأنثى من بني الإنسان.

وإضافة كلمة امرأة هنا إلى الضمير الراجع إلى أبي لهب، تحتاج إلى ما يبررها.. وقد يكون المبرر هو علاقة الزوجية المقبولة شرعاً.

وقد تكون هي العِشرة الطويلة، والمساكنة، ولكن من دون عقد زواج، معترف به شرعاً، أو عرفاً. بل هو مجرد عِشرة لا يرضاها الشارع، ولكن العرف المنحرف يسكت عنها، بسبب عدم المبالاة، فتنتسب المرأة إلى الرجل بسبب هذه العلاقة غير المشروعة.

وربما كانت العلاقة مستندة إلى عقد معترف به، ولكنه قد يكون عقداً على امرأة لا يصح عقده عليها، لبعض الأسباب الموجبة للتحريم.

فلعل سبب التعبير بقوله: ﴿**وَامْرَأَتُهُ**﴾ هو عدم الرغبة في تسجيل اعتراف بمشروعية هذه العلاقة، ربما أنه كان يشوبها بعض ما يقتضي الإخلال بشرعيتها، ولو على قاعدة: «لكل قوم نكاح».

حمالة الحطب:

وعن قوله تعالى: ﴿**حَمَّالَةَ الْحَطَبِ**﴾ نقول:

1 ـ كلمة «حمالة» منصوبة بفعل محذوف تقديره: أذم أو أعني.. وقيل في إعرابها غير ذلك، ولا نحتاج إلى ذكر الأقوال، بل نحيل من يرغب بالاطلاع عليها إلى كتب التفسير..

2 ـ كلمة ﴿**حَمَّالَةَ**﴾ يمكن أن تكون صيغة مبالغة، لكثرة حملها للحطب.

فقد قالوا: إنها كانت تجمع الحطب ذا الشوك، وتلقيه في طريق رسول الله «صلى الله عليه وآله» لتجرح أقدامه الشريفة، حين كان يخرج في غسق الليل للصلاة.

ولعل من دوافع هذا العمل: الحقد والضغينة، والخوف من ظهور دعوته، والحسد له «صلى الله عليه وآله»، لأن الأشرار يحسدون أهل الخير والصلاح، والعلم والمعرفة، والتقوى والاستقامة. ويزداد حسدهم وبغضهم لهم كلما زادت هذه الميزات بروزاً وظهوراً فيهم.

كما أنهم كانوا يخشون أن يفقدهم رسول الله «صلى الله عليه وآله» مكانتهم في مكة، وفي العرب، ويخبو وهجهم، ويتضاءل موقعهم.. بما فيهم أبو سفيان، وهو أخو أم جميل، وأبو لهب وهو ابن عبد المطلب.. وغيرهما..

وقد تحدث القرآن الكريم عن حسد هؤلاء الناس للأخيار الأبرار فقال: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾[1].

وقال: ﴿**..وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ**﴾[2].

3 ـ إن هذه الممارسة الايذائية لرسول الله «صلى الله عليه وآله»، تدل على أن الحقد والحسد قد أسف بصاحبه حتى بلغ به إلى أسفل الدركات.. وذلك لما يلي:

---

(1) الآية 54 من سورة النساء.

(2) الآية 109 من سورة البقرة.

ألف: إن أم جميل هي أخت أبي سفيان، وعمة معاوية، وزوجة أبي لهب، الذي كان ذا مكانة مرموقة لدى أهل مكة، وهو بالتالي ابن عبد المطلب «عليه السلام» وعم الرسول، وأخ أبي طالب وحمزة، وعبد الله وغيرهم.

وهذا يدلنا على أن أم جميل تعيش في بيت له موقعه ونفوذه في قريش وسواها، ولها بعض العزة والمكانة في محيطها.

ب: إن أبا لهب كان ذا مال وفير، ولم يكن لديه مانع من أن ينفقه في الصد عن دين الله، وإبطال أمر رسول الله «صلى الله عليه وآله».

والمفروض: أنه كان لا يبخل عليها بالأموال، إذا أرادت توظيفها في إضعاف أمر النبي «صلى الله عليه وآله» فكيف تحولت هذه المرأة لتصبح امرأة حمالة للحطب، بدافع من حقدها وحسدها، واستكبارها عن الحق؟!

فإن حمالة الحطب لم تكن محترمة في ذلك المجتمع، لاسيما إذا كانت تملك من الأموال الطائلة، ما يمكنها أن تستفيد منه في تحقيق رغباتها، ولو بأن تستأجر من يجمع لها الحطب المطلوب، ويلقيه في طريق الرسول مقابل مبلغ ضئيل من المال.

إن المرأة ذات المكانة المرموقة والتي تملك الأموال لا تقدم على حمل الحطب ولو لمرة واحدة، فضلاً عن أن تصبح حمالة الحطب. ولأجل ذلك نرى: أن كثيراً من المفسرين يقول: إن هذا الوصف تحقير وإهانة لها.

ولكن لا ضير في هذه الإهانة إذا كانت تعبر عن الواقع، ولاسيما إذا كان من تطلق عليه هو من المجرمين الضالين، وهو الذي اختار أن يضع نفسه في هذا المأزق القذر والقبيح..

ويتأكد هذا القبح حين يكون المقصود من حمل الحطب هو إيذاء نبي أرسله الله تعالى رحمة للعالمين، ليخرجهم من الظلمات إلى النور.. مع أن هذا الأمر مرفوض حتى لو قصد به إيذاء أي كان من الناس.

فلا مجال لقبول قول من قال: إن أم جميل كانت من سادة النساء، فهل سادة النساء يخترن المهن المنحطة للتنفيس بها عن حقدهن وحسدهن؟!

ألم تكن قادرة على اختيار أساليب تحفظ لها هذه السيادة ولو شكلياً؟!

التلاقي بين حال أبي لهب وحال امرأته:

هناك تناسب وتلاق بين ما ذكره تعالى عن أبي لهب، وما ذكره عن امرأته، فنلاحظ:

أولاً: إننا نلاحظ: أن الله تعالى قد سمى الزوج بأبي لهب، وقال: إن النار التي يصلاها ذات لهب.

وفي مقابل ذلك سمى امرأته بحمالة الحطب، والحطب هو من أهم أسباب تأجيج النار في ذلك الزمان، واظهار لهبها، تمهيداً لوصولها إلى درجة عالية من التوقد الذي يخرج اللهب من بين الجمر، حيث لا يبقى للهب دخان.

ثانياً: إن أبا لهب يتعذب بأعماله، فهي التي تجعله يكابد الاصطلاء بالنار، وكذلك الحال بالنسبة لأم جميل، فإنها تعذب في الآخرة بنفس الوسائل التي استعملتها في إيذاء رسول الله «صلى الله عليه وآله» حيث يكون في جيدها حبل مفتول من ليف، كما كانت تلف حبل حزمة الحطب على جيدها حين

تريد أن تأتي بها ليلاً لتضعها في طريق رسول الله «صلى الله عليه وآله».

(فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ):

فيلاحظ: أنه تعالى لم يقل: «في رقبتها»، بل قال: ﴿**فِي جِيدِهَا**﴾، وذلك لما يلي:

1 ـ إن موضع الكرامة لدى المرأة، وأشرف مكان في كيانها، وفي شخصيتها هو جيدها، وبه تستقبل أقرانها، وغيرهم، وهو مركز اهتمامها، وموضع اعتزازها، ولذا نراها تخصه بالجواهر والفرائد، والذهب والقلائد.

2 ـ إنما سمي الجيد جيداً لجودته وحسنه، وقد قالوا: إن الجيد هو القدّام من العنق، وهو ما فوق الصدر والجيب، والعنق ما يقابله، وهو جهة الخلف أو أعمّ، والرقبة هي العنق باعتبار الشخصيّة[1].

3 ـ إذا كان لهذه المرأة مكانة في محيطها، ولديها ثروة مالية كبيرة، فإنها لا ترضى لنفسها أن تكون حمالة حطب، فضلاً عن أن تضع حبل الحطب على جيدها باستمرار، لتدل بذلك على طبيعة مهنتها، وحاجتها المتواصلة للحبل.

إذ لو كان هذا الأمر عارضاً، بأن احتاجت إلى نقل بعض الحطب بنفسها، فإنها تنقله من دون حبل، ولو استعملت حبلاً، فإنها لا تضعه على جيدها فترة طويلة.

فإذا كان حمل الحطب خزاية لها، ثم كان الحمل بهدف إيذاء أكرم الأنبياء

---

(1) التحقيق في كلمات القرآن الكريم للمصطفوي ج2 ص158 و (نشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي سنة 1417هـ) ج2 ص150.

على الله، وطمس معالم الحق، خزاية أخرى.

والخزاية الثالثة تتمثل بالإصرار على فعل هذا الأمر القبيح، والثبات عليه.

والخزاية الرابعة: أن هذا المسد سيكون من النار أيضاً، أو لا تأكله النار.

وإذا كانت قد حاولت في الدنيا التخفي تحت جنح الظلام بفعلها هذا، فإن الله سبحانه سوف يفضحها به يوم القيامة، وحيث تنتظرها الخزاية الأعظم، لأن موضعها سيكون في قعر جهنم.

حيث أصبحت هي وزوجها في أذل، وأضعف الحالات، وأصبحت تعاني إذلالاً فوق إذلال، وخزياً يفوق كل خزي، لأنه سيكون بمرأى ومسمع من جميع الخلائق من الأولين والآخرين، من لدن آدم إلى قيام يوم الدين، وسيكون في جيدها وصدرها، وأعز مكان في جسدها.

وبذلك تجتمع عليها العذابات النفسية والجسدية كأشد ما يكون العذاب.

وهي عذابات تسانخ أفعالها في الدنيا، فقد أرادت إذلال النبي «صلى الله عليه وآله»، وأرادت إيذاءه في جسده، وفي روحه، وفي كيانه، وفي موقعه، وفي كرامته..

فكان عذابها في الآخرة متضمناً لكل هذه المعاني والحالات.

ملاحظة: المسد: هو الليف المجدول بشدة وإحكام. وقيل: هو الحديد.

امرأة ورجل:

وبعد.. فإنه إذا كان أبو لهب رجلاً ماكراً، يخطط، ويدرس خطواته، بعناية

ودقة ويعمل على أن يكون أذاه في دينه، وفي أهدافه الكبرى عميقاً، ومؤثراً..

فإن أم جميل كانت تتعامل بمشاعرها وانفعالاتها، وانسياقاً مع إدراكاتها المحدودة، وسقم وسطحية تفكيرها، وانقيادها لمشاعرها الهائجة، وضغائنها وحقدها المتأجج، وبغضها المتجذر في أعماق وجودها.. كانت أيضاً أن توصل إلى النبي «صلى الله عليه وآله» أشد أذى تقدر عليه، في جسده على أقل تقدير.

وقد ذكر الله تعالى هذين النموذجين، ليبين لنا كيف تعاضدت أنواع الكيد الشيطاني ضد رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وحاربته بكل ما تملك، وقد رد الله تعالى كيدهم إلى نحورهم.

قال تعالى: ﴿**وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً**﴾[1].

(1) الآية 25 من سورة الأحزاب.

كلمة أخيرة:

كانت تلك لمحات مـن الهدايات القرآنية إلى الحق، ولفتات تضمنتها آيات سورة «المسد»، التي أريد لها أن تقدم نموذجاً من الكيد الشيطاني، الذي مارسه رجـل وامرأة فقط في حق دين الله، ثم في حق رسول الله «صلى الله عليه وآله»، والمصير المزري الذي انتهى إليه هذا الرجل وامرأته في الدنيا والآخرة.

نسأل الله تعالى أن ينفع به القارئ الكريم، وأن يهدينا وإيـاه إلى الصراط المستقيم، بمنه وكرمه، فإنه الكريم الرحيم.

والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين..

حرر بتاريخ 24 /1337/7 هـ. ق

2016/5/2 م. ش

بيروت ـ الضاحية الجنوبية

جعفر مرتضى العاملي

الفهرس

كتب مطبوعة للمؤلف

1ـ الآداب الطبية في الإسلام

2ـ ابن عباس وأموال البصرة

3ـ ابن عربي سنيّ متعصب

4ـ أبو ذر لا إشتراكية.. ولا مزدكية

5ـ أحيـوا أمـرنا

6ـ إدارة الحرمين الشريفين في القرآن الكريم

7ـ إسرائيل.. في آيات سورة بني إسرائيل.. تفسير ثمان آيات..

8ـ الإسلام ومبدأ المقابلة بالمثل

9ـ الإعتماد في مسائل التقليد والإجتهاد (صدر منه جزء واحد)

10ـ أفلا تذكرون «حوارات في الدين والعقيدة»

11ـ أكذوبتان حول الشريف الرضي

12ـ الإمام علي والنبي يوشع ′

13ـ أهل البيت ^ في آية التطهير

14ـ أين الإنجيل؟!

15ـ بحث حول الشفاعة

16ـ براءة آدم × حقيقة قرآنية

17ـ البنات ربائب.. قل: هاتوا برهانكم

18ـ بنات النبي ′ أم ربائبه؟!

19ـ بيان الأئمة وخطبة البيان في الميزان

20ـ تحقيقي در باره تاريخ هجري
21ـ تخطيط المدن في الإسلام
22ـ تفسير سورة ألم نشرح
23ـ تفسير سورة الضحى
24ـ تفسير سورة الفاتحة
25ـ تفسير سورة الكوثر
26ـ تفسير سورة الماعون
27ـ تفسير سورة المسد (هذا الكتاب)
28ـ تفسير سورة الناس
29ـ تفسير سورة هل أتى (جزءان)
30ـ توضيح الواضحات من أشكل المشكلات
31ـ الحاخام المهزوم
32ـ حديث الإفـك
33ـ حقائق هامة حول القرآن الكريم
34ـ حقوق الحيوان في الإسلام
35ـ الحياة السياسية للإمام الجواد ×
36ـ الحياة السياسية للإمام الحسن ×
37ـ الحياة السياسية للإمام الرضا ×
38ـ خسائر الحرب وتعويضاتها
39ـ خلفيات كتاب مأساة الزهراء ÷ (ستة أجزاء)
40ـ دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام (أربعة أجزاء)

41ـ دراسة في علامات الظهور

42ـ دليل المناسبات في الشعر

43ـ ربائب الرسول ′ «شبهات وردود»

44ـ رد الشمس لعلي ×

45ـ زواج المتعة (تحقيق ودراسة) (ثلاثة أجزاء)

46ـ الزواج المؤقت في الإسلام (المتعة)

47ـ زينب ورقية في الشام!!

48ـ سلمان الفارسي في مواجهة التحدي

49ـ سنابل المجد (قصيدة مهداة إلى روح الإمام الخميني وإلى الشهداء الأبرار)

50ـ السوق في ظل الدولة الإسلامية

51ـ سياسة الحرب في دعاء أهل الثغور

52ـ سيرة الحسين × في الحديث والتاريخ (أربعة وعشرون جزءاً)

53ـ شبهات يهودي

54ـ الشهادة الثالثة في الأذان والإقامة

55ـ الصحيح من سيرة الإمام علي × (ثلاثة وخمسون جزءاً)

56ـ الصحيح من سيرة النبي الأعظم ′ (خمسة وثلاثون جزءاً)

57ـ صراع الحرية في عصر الشيخ المفيد

58ـ طريق الحق (حوار مع عالم جليل من أهل السنة والجماعة)

59ـ ظاهرة القارونية من أين؟! وإلى أين؟!

60ـ ظلامة أبي طالب ×

61ـ ظلامة أم كلثوم

62ـ عاشوراء بين الصلح الحسني والكيد السفياني

63ـ عصمة الملائكة بين فطرس.. وهاروت وماروت
64ـ علي × والخوارج (جزءان)
65ـ الغدير والمعارضون
66ـ فصل الخطاب في الميزان
67ـ القول الصائب في إثبات الربائب
68ـ كربلاء فوق الشبهات
69ـ لست بفوق أن أخطىء من كلام علي ×
70ـ لماذا كتاب مأساة الزهراء ÷؟!
71ـ ماذا عن الجزيرة الخضراء ومثلث برمودا؟!
72ـ مأساة الزهراء ÷ (جزءان)
73ـ مختصر مفيد (أسئلة وأجوبة في الدين والعقيدة)، (ثمانية عشر جزءاً).
74ـ مراسم عاشوراء «شبهات وردود»
75ـ المسجد الأقصى أين؟!
76ـ مقالات ودراسات
77ـ منطلقات البحث العلمي في السيرة النبوية
78ـ المواسم والمراسم
79ـ موقع ولاية الفقيه من نظرية الحكم في الإسلام
80ـ موقف الإمام علي × في الحديبية
81ـ ميزان الحق «شبهات وردود» (أربعة أجزاء)
82ـ نقش الخواتيم لدى الأئمة ^
83ـ وقفات مع ناقد

84ـ الولاية التشريعية

85ـ ولاية الفقيه في صحيحة عمر بن حنظلة